بدايات العمارة القروسطية EARLY MEDIEVAL ARCHITECTURE

العمارة الكارولينغية KAROLINGIAN ARCHITECTURE

1. مقدمة - Introduction

أطلق المؤرخون على المرحلة التاريخية التي امتدت ما بين نهاية الامبراطورية الرومانية وحتى بداية عصر النهضة (أي بين عام 400-1400 م) اسم **القرون الوسطى** Middle Ages أو **الفترة القروسطية** medieval period حيث اعتبرت مرحلة تتوسط ما بين العصور القديمة (antiquity) والعصور الحديثة.

حدث في بداية هذه الفترة انقطاع في العمارة والبناء في أوروبا نتيجة عوامل تاريخية عديدة وخاصة بعد انقسام الدولة الرومانية عام 395 م والقضاء على الإمبراطورية الرومانية الغربية على يد الجرمانيين البرابرة بشكل نهائي عام 476م، أي على يد أقوام وصلت ضمن هجرات متتالية من أواسط آسيا إلى أوروبا ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين.

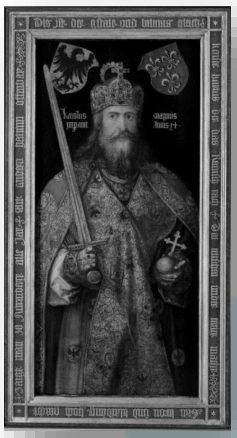

شارلمان Charlemagne

مملكة الفرنجة Frankish Kingdom

وبالتالي فإن الفترة التي ازدهرت فيها العمارة البيزنطية في شرق أوروبا (القرن 6 م) وبدأت بعدها العمارة الإسلامية بالظهور شرق المتوسط وجنوبه في الفترة الأموية (القرن 8 م) والفترة العباسية (القرن 9 م) لم تقابلها عمارة مميزة في غرب أوروبا. إذ تحولت أوروبا في هذه الفترة إلى إقطاعات صغيرة ولم تتوحد مرة أخرى إلا في عهد شارلمان Charlemagne (حكم بين 768-814م)، الذي توج ملكا على مملكة الفرنجة Frankish Kingdom وهي منطقة تشمل اليوم فرنسا وأجزاء من ألمانيا وتمتد إلى وسط

إيطاليا، ثم توج عام 800 م من قبل البابا ليو الثالث Leo III ليكون إمبراطورا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة Holy Roman Empire، مما شكل ارتباطا وثيقا بين الكنيسة في روما وبين السلطة السياسية استمرت فترة طويلة في أوروبا.

رافق ذلك تطورات لافتة على صعيد تنظيم الحياة السياسية والدينية والثقافية والاقتصادية، مما انعكس على البناء والعمارة فظهر ما يعرف بالعمارة الكارولينغية Karoligian Architecture نسبة إلى الملك كارل الكبير أو شارلمان.

2. العمـــارة الكـارولينغية Karolingian Architecture

حاول شارلمان أن يجعل إمبراطوريته ذات أهمية مماثلة للإمبراطورية البيزنطية وبالتالي اعتمد على التراث المعماري الروماني والبيزنطي لبناء أبنية ضخمة تعد بدايات العمارة الأوروبية في القرون الوسطى.

أسلوب حكم شارلمان كان يعتمد على نظام طبقي يقسم المجتمع إلى ملاك أراضي وثم فرسان ورجال دين ورهبان ومن ثم فلاحين يعملون لدى الإقطاعيين وجميعهم يدينون بالولاء للملك. ولم يكن لشارلمان مقر واحد أو عاصمة إذ كان ينتقل من مكان إلى مكان لتثبيت حكمه، فنتج عن ذلك انتشار واسع للعمارة الكارولينغية، التي ركزت بشكل أساسي على بناء الكنائس والأديرة ومقرات الحكم الامبراطورية Imperial palaces، التي كانت عبارة عن مقرات إدارية تضم كنيسة وقاعة للعرش وقاعة للاجتماعات وقاعة أخرى لإصدار الأحكام القضائية إضافة إلى فراغات خدمية وكانت بضخامتها تعتبر رمزا للسلطة. زال معظم هذه الأبنية ومن أشهر الأمثلة التي لا زال جزء منها قائما مقر الحكم Palace complex في مدينة آخن، التي تقع غرب ألمانيا. كان هذا المجمع يضم قاعة عرش Audience hall على شكل بازيليكا رومانية إضافة إلى كنيسة مميزة.

1.2. كنيسة القصر في آخـــن (ألمانيا) أو كاتدرائية آخـــن - Palatine Chapel, Aachen

تعد الكنيسة التي لا زالت قائمة اليوم جزء من مجمع ضخم Palace complex طرأت عليه تعديلات وإضافات كثيرة لاحقا. أمر ببنائها شارلمان وتم البناء ما بين عامي 792-805 م. تصميم المبنى مقتبس من كنيسة سان فيتالي في رافينا.

المبنى ذو تصميم مركزي يعتمد على وجود فراغ مثمن الشكل في المركز ويحيط به رواق على طابقين، يشكل مضلع مكون من 16 ضلعا جداره الخارجي. الفراغ المركزي مسقوف بقبة مضلعة cloister vault ذات رقبة تخترقها نوافذ علوية للإضاءة. القبة محمولة على ثمان دعامات ضخمة، تربط بينها في الطابق الأرضي أقواس نصف دائرية، بينما يتخلل كل قوس في الطابق العلوي ذو الارتفاع المضاعف عمودان ذوي تيجان كورنثية يحملان أقواس نصف دائرية (فكرة تناوب الدعامات والأعمدة مستقاة من العمارة البيزنطية). الأعمدة والتيجان هي عناصر معادة الاستخدام مأخوذة من مدينة رافينا لإظهار الارتباط بالفترة الرومانية والبيزنطية، إضافة إلى استخدام الرخام المجزع في إكساء الدعامات.

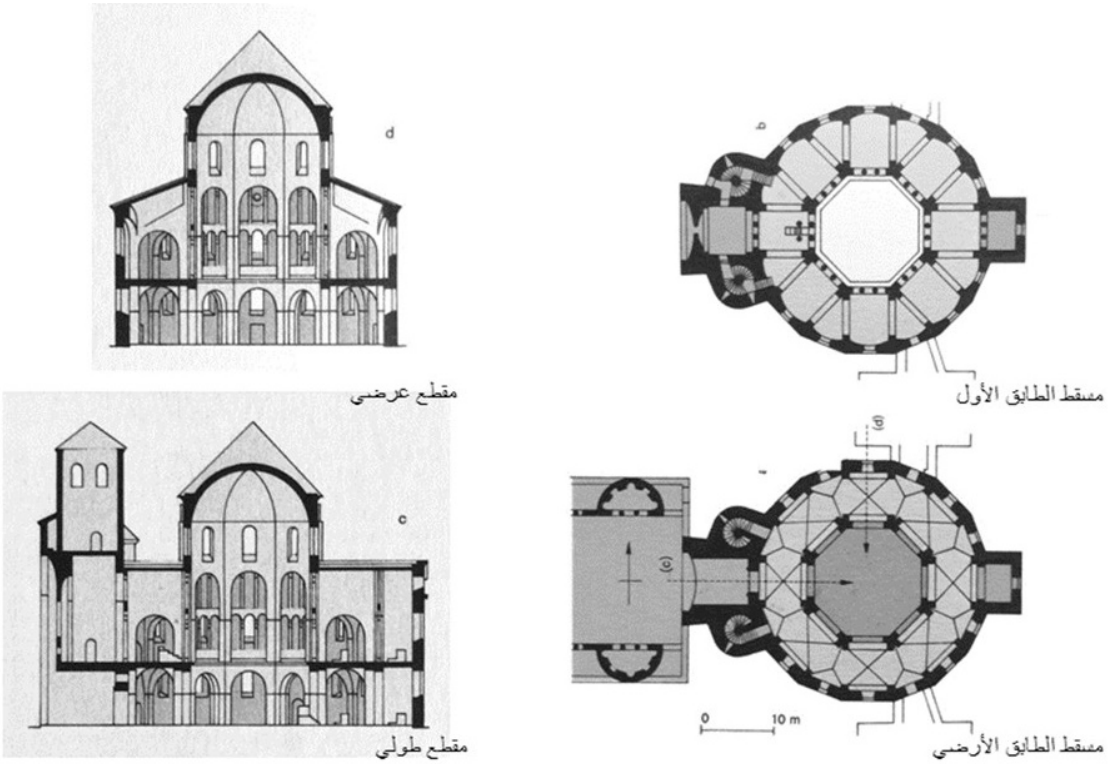

كنيسة القصر في آخـــن أو كاتدرائية آخـــن

كان البناؤون على معرفة بتقنيات البناء القديمة لذلك عمدوا إلى استخدام القبوات لتسقيف الأروقة المحيطية وجعلها تتلقى القوى الأفقية من القبة المركزية، حيث نجد قبوات متصالبة groin vault في الطابق الأرضي وقبوات أسطوانية barrel vault مائلة نحو الخارج في الطابق العلوي تحمل السقف المائل.

رغم مركزية المبنى فإن له محور واضح ناتج عن وجود المحراب apse المربع في جهة الشرق في حين يقابله في الغرب ابتكار كارولينغي هو ما يعرف بالـ **westwork** وهو عبارة عن مجموعة من الفراغات المعمارية تتوضع غرب الكنيسة تشكل الواجهة الغربية للمبنى وتضم بهو المدخل المحوري إضافة إلى برج أو عدة أبراج. تشمل هذه الكتلة ضمن هذا المبنى مدخل الكنيسة في مستوى الطابق الأرضي، أما في الطابق العلوي، الذي يتم الوصول إليه عبر أدراج حلزونية جانبية، فتعلو المدخل مقصورة الإمبراطور loggia التي تؤدي إلى الرواق العلوي gallery وإلى العرش ومن هنا كان يمكن لشارلمان وحاشيته أن يتابعوا كافة الفعاليات التي تتم ضمن الكنيسة في الأسفل. يعلو هذه المقصورة برج مرتفع مستقل مربع الشكل كان يستخدم لحفظ الكنوز والآثار التي تذكر بالقديسين relics (رفاة).

تظهر وحدة الفكرة التصميمية ما بين الداخل والخارج فالمثمن الداخلي وقبته التي كانت مسقوفة من الخارج بمخروط تبرز في وسط المضلع الخارجي المنتهي بسقف مائل باتجاه الخارج. وحدها الكتلة الغربية تبدو واضحة أكثر من الخارج وتطغى ببوابتها المرتفعة المنتهية بقوس على الصحن الأمامي atrium الذي يتقدمها.

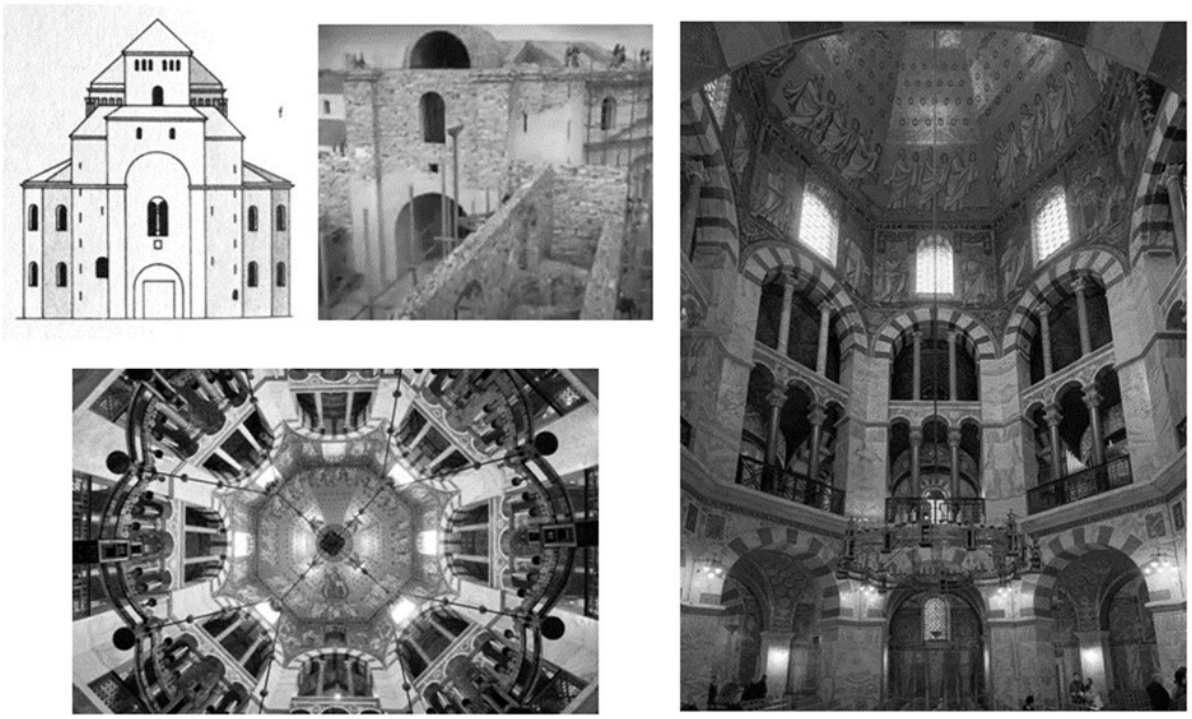

كنيسة القصر في آخـــن أو كاتدرائية آخـــن: الفراغ المركزي المسقوف بقبة - إعادة تصور للواجهة الغربية

ينسب البناء إلى المعمار Odo of Metz ويعتقد أن البنائين جاؤوا من منطقة لومبارديا شمال إيطاليا، ليقوموا بإحياء العمارة الحجرية ضمن منطقة لم تستخدمها لخمسة قرون خلت. وتم استقدام مواد البناء والبنائين والفنيين من كامل أنحاء المملكة، مما أدى إلى الربط مع المباني البيزنطية الموجودة في شمال إيطاليا ولكن لا يمكن إغفال التجديدات التي تم ابتكارها من حيث التوزيع الذي يناسب وظيفة هذه الكنيسة.

تبقى هذه الكنيسة حالة خاصة ولا تجد تقليدا لها شمال جبال الألب، ولكن استخدم التصميم المركزي في إنشاء مباني المعموديات وخاصة في إيطاليا. هناك أيضا أبنية أخرى تنتمي إلى الفترة الكارولينغية يمكن من خلالها إيضاح التجديدات التي تميزت بها المباني الكنسية من أهمها كنيسة دير سانت ريكييه في سينتولا وكنيسة دير كورفاي.

2.2. كنيسة دير سانت ريكييه في سينتولا - Abbey of Saint Riquier, Centula

بنيت كنيسة دير سانت ريكييه في سينتولا قرب مدينة Amiens في شمال فرنسا ما بين 790-799م، ورغم أنها غير موجودة اليوم ولكن يمكن من خلال إعادة تصورها reconstruction استخلاص نتائج هامة تتعلق بتطور عمارة الكنائس في هذه المرحلة.

المبنى كان عبارة عن بازيليكا مكونة من ثلاثة مجازات تمتد بين كتلتين معماريتين متماثلتين من الخارج هما مجازان معترضان transept متعددا الطوابق مع ما يتبعهما من أبراج فوق نقطة التقاطع crossing tower إضافة إلى أبراج الأدراج. تمتد هذه الكتل شرقا مشكلة المحراب apse الممتد بشكل متطاول هنا ليكون كنيسة صغيرة ضمن الكنيسة مخصصة للمرتلين من الرهبان تعرف بالـchoir. وتمتد غربا من خلال كتلة متعددة الطوابق تحول الجهة الغربية إلى ما يعرف بالـwestwork (كتلة الغربية) الذي يضم بهو دخول في الطابق الأرضي ويعلوه كنيسة مستقلة متعددة الطوابق. تسيطر هذه الكتلة على الفناء الأمامي Atrium الذي يتقدم المدخل.

كان هذا المبنى من أحدث مباني عصره وقد أثر بشكل كبير على عمارة كنائس في الفترة اللاحقة وخاصة في شمال وشرق فرنسا وأيضا في ألمانيا.

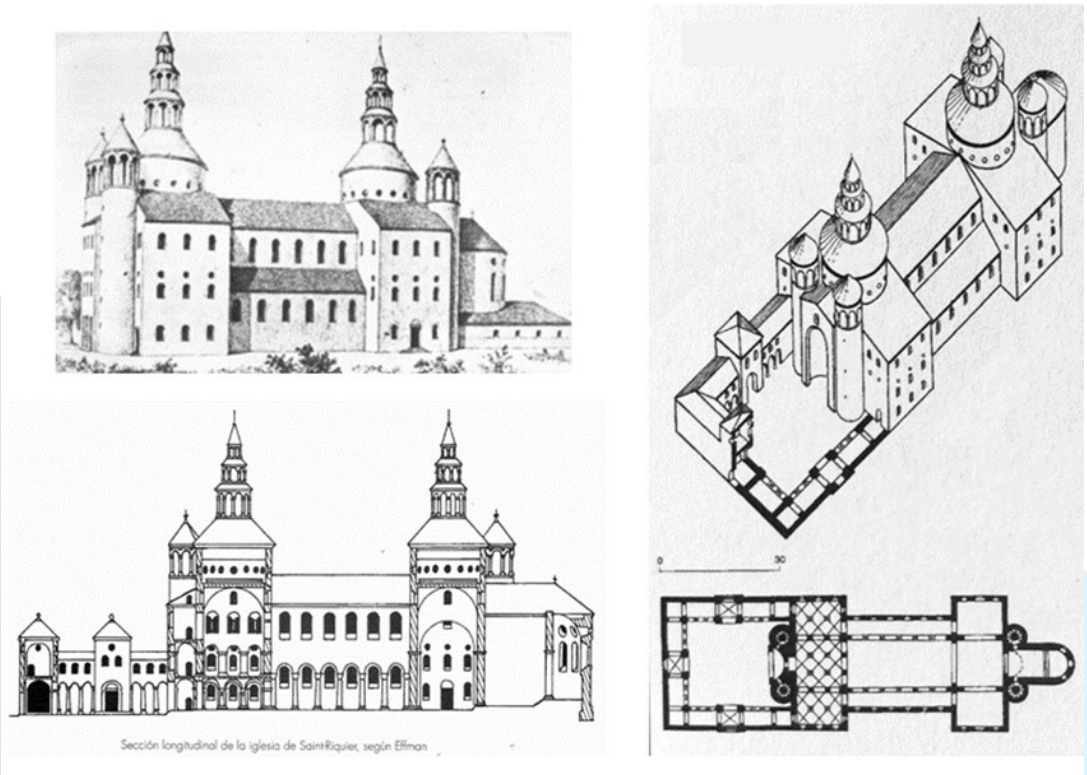

كنيسة دير سانت ريكييه في سينتولا: إعادة تصور - منظور - مسقط - مقطع طولي

3.2. كنيسة دير كورفاي Abbey church at Corvey

تعد كتلة الغربية الـ **westwork** التابعة لكنيسة دير كورفاي في ألمانيا، التي دشنت عام 885 م من الأمثلة النادرة التي لا تزال قائمة على هذا النوع من المنشآت من هذه الفترة. وهي تتكون من ثلاثة أبراج مربعة، برجين جانبيين بينهما برج مركزي يعلو

بهو الدخول. ترتبط هذه الكتلة من الشرق من خلال قوس مرتفع بداخل الكنيسة وتؤمن إطلالة عليها. علما أن باقي الكنيسة دمر في مراحل لاحقة وجدد في فترة الباروك.

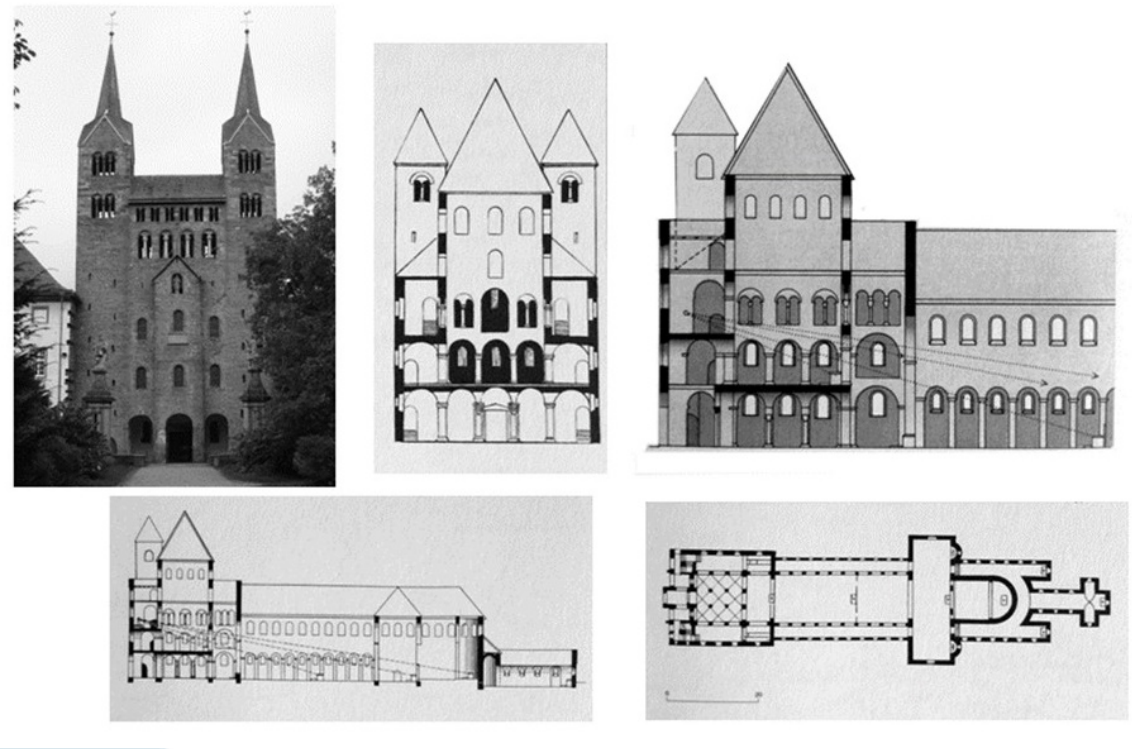

كنيسة دير كورفاي: كتلة الـ westwork (مقطع طول وعرضي - واجهة) - مسقط للمبنى

ساهمت هذه الفكرة لاحقا بانتشار الواجهات الغربية للكنائس المكونة من برجين أماميين متماثلين وبينهما بشكل محوري مدخل الكنيسة.

3. الأديـــرة وأهميتها Monasteries

توالت التجديدات في هذه الفترة وخاصة في العمارة الكنسية وعمارة الأديرة التي انتشرت بسرعة. حيث قام شارلمان بالعودة إلى تعليمات الرهبنة التي وضعها القديس بينيديكت Saint Benedict في القرن 6 م. وشجع على انتشار الأديرة Monasteries في المناطق الريفية كونها تساهم في تثبيت استيطان القرى إضافة إلى مهامها الروحية في نشر الديانة المسيحية ووظيفتها التعليمية إذ كانت المدارس الوحيدة الموجودة وقتها ضمن الأديرة. فنشأت آلاف الأديرة في القرون الوسطى، مما جعل لها أهمية كبيرة في تطور العمارة في هذه المرحلة.

زالت معظم الأديرة التي أقيمت في الفترة الكارولينغية أو طرأت عليها تعديلات كثيرة ولذلك يعد العثور على **مخطط ديرسانت غال** في سويسرا **Plan of St. Gall**، الذي يؤرخ بحوالي عام 820م، مهما لفهم التطور في توزيع الفعاليات المختلفة المكونة للدير والفصل بينها إضافة إلى إيضاح نماذج البناء المستخدمة حينها.[1]

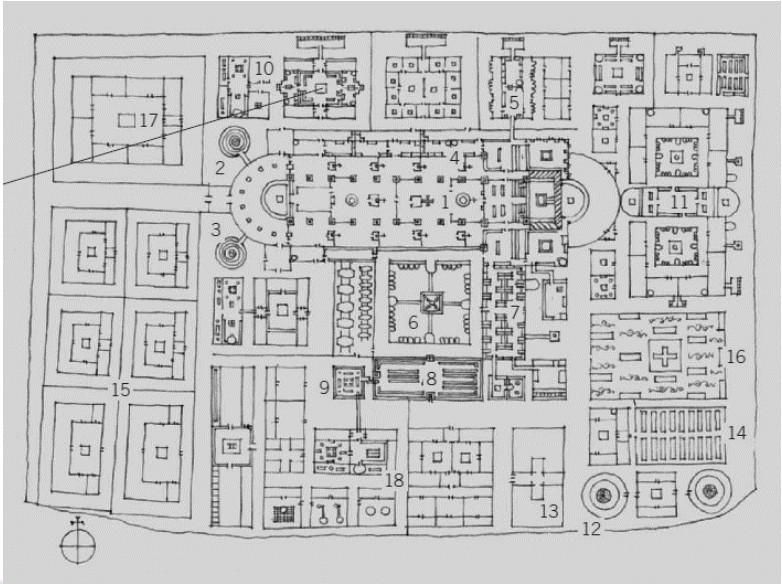

1. Church
2. Tower of St. Michael
3. Tower of St. Gabriel
4. Guest lodgings
5. Abbot's house
6. Cloister
7. Monks' dormitory
8. Monks' refectory
9. Kitchen
10. Brew house
11. Novitiate and infirmary
12. Henhouse
13. Granary
14. Monks' garden
15. Monks' orchard and cemetery
16. Sheep, goats, and cows
17. Unknown function
18. Workshops

مخطط دير سانت غـــــال

يضم المخطط حوالي 50 مبنى مع تسمياتها، أدقها بالرسم كنيسة الدير، التي تتوسط المجمع تقريبا، وهي ذات مسقط بازيليكالي (3 مجازات) إضافة إلى وجود محرابين apse الأول في الشرق يقابله الثاني في الغرب. يرتبط بالكنيسة جنوبا منطقة مغلقة - مخصصة للرهبان فقط - تعرف بالـ cloister وهي تضم رواقا محيطا بصحن مربع (حديقة داخلية) تنفتح عليه قاعة النوم dormitory وقاعة الطعام refectory وتلحق بها أيضا دورات مياه وحمام ومطبخ. أما باقي المباني فتتوزع حول هذا المركز حسب وظيفتها، فشمال المجمع نجد سكن رئيس الدير والمدرسة والمكتبة وفي جهة الشرق يتوضع المشفى (مع مباني ملحقة) ومبنى مخصص للرهبان الجدد إضافة إلى حديقة (غالبا للأعشاب الطبية)، كما يوجد مقبرة. ويتبع للدير في الغرب والجنوب الغربي عدد كبير من المباني ذات الطبيعة الاقتصادية مثل مبنى فرن وآخر لتصنيع البيرة ومطحنة ومعصرة وغيرها من الورشات الحرفية والحظائر. ويحيط بجميع هذه الفعاليات سور يفصل الدير عن الأراضي المجاورة.

يعتقد أن مثل هذه الأديرة كانت تضم ما يزيد عن 100 راهب مع 200 من العمال والخدم التابعين لهم. وكانت تشكل مركز إشعاع ديني وعلمي واقتصادي. لم يكن هذا المخطط معدا للبناء الفعلي إنما يعد فكرة تصميمية أي فكرة مثالية لتوزع المنشآت التي كانت تتكون منها الأديرة.

[1] عثر على المخطط في دير جزيرة Reichenau في القرن 19 م - وهو مرسوم بالحبر الأحمر على الورق - 112× 77 سم.

خلاصة العمـارة الكارولينغية

تتميز العمارة الكارولينغية بالعودة إلى التأثر بالعمارة الرومانية والبيزنطية من حيث اعتماد التصميم المركزي أو التصميم المحوري البازيليكالي في بناء الكنائس. وكذلك العودة إلى استخدام الحجر كمادة للبناء في أوروبا شمال جبال الألب إضافة إلى بعض تقنيات البناء القديمة مثل بناء الأقواس والقبوات المختلفة للتسقيف. إضافة إلى تقليد الزخارف المعمارية والعناصر التزيينية ولكن كل ذلك من خلال تحوير هذه العناصر.

ولكن رافق ذلك ابتكار عناصر فراغية جديدة وفقا لاحتياجات هذه المرحلة منها مثلا الـwestwork ككتلة واضحة غرب الكنائس إضافة إلى الأبراج والمساقط ذات المحرابين المتقابلين في الشرق والغرب.